الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف الإمام رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح وللسامعين :

باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠] ، **وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾** [البقرة:١٣٢] ، **وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾** [النحل:١٢٣] .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**باب قول الله تعالى:** ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾)) ؛ هذه الترجمة عقدها المصنف رحمه الله ليبين بها حقيقة الإسلام ، وأن فضائل الإسلام العظيمة التي ينالها أهل الإسلام لا تُنال إلا بإقامة الوجه للدين ؛ بالتزامه والمحافظة عليه والعناية به والسعي في تحقيقه وتتميمه وتكميله ، وأعظم شيء في ذلك إخلاصه لله ﷻ والبعد عن الشرك ، وأن يكون المسلم حنيفاً مخلصاً بعيداً عن الشرك بالله وصرف العبادة لغير الله مقبِلاً على الله ﷻ بفعل ما أمر وإقامة فرائض الدين وواجباته . فحقيقة الإسلام ونيل فضائله العظام لا تكون إلا بهذا ؛ ولهذا أورد المصنف رحمه الله هذه الترجمة وجعل عنوانها هذه الآية الكريمة لكونها دالة على المقصود ، وساق من الآيات والأحاديث ما يبين هذا الأمر .

قال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ إقامة الوجه تكون بالإخلاص لله ﷻ بأن يقبل في أعماله وعبادته وجميع طاعاته بوجهه إلى الله ﷻ ؛ فيقصده وحده ويبتغي وجه الله بالعمل يريد بعمله ثواب الله . هذه إقامة الوجه ، إقامة الوجه: بإقباله على الله تبارك وتعالى وانصرافه عما سواه ، وأن يكون مقبلا بقلبه ووجهه وعبادته وأعماله وطاعاته إلى الله جل وعلا، لا يجعل لأحدٍ بها حظا أو نصيبا ، وإنما تقع منه كلها لله تبارك وتعالى فيقصده وحده. ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ ؛ والدين: هو توحيد الله وعبادته والصلاة والصيام وكل ما شرع الله تبارك وتعالى من أوامر تُفعل ونواهي تُترك ؛ كل ذلك يشمله قوله ﴿ الدِّينِ ﴾ . الدين هو شرع الله عز وجل وما أمر الله تبارك وتعالى عباده به .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾: أي استقم على دين الله تبارك وتعالى مخلصاً له ؛ فثمة أمران هنا لابد منهما : وهو ابتغاء الله بالعمل ، والثاني : الجد في العمل بالمحافظة عليه وحفظه والعناية به ؛ فبهما يتحقق للعبد إقامة وجهه للدين ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ بالاستقامة على الدين محافظةً عليه ، وبإيقاعه خالصا لله ، ولهذا نعيد هنا ما سبق وهو: أن من استكبر عن العمل لم يُقِم وجهه للدين ، ومن صرف العمل لغير وجه الله لم يُقِم وجهه للدين ؛ فإقامة الوجه للدين لابد فيها من الإخلاص والاستسلام ؛ الإخلاص لله: بأن يبتغى بالعمل وجه الله ﷻ ، والاستسلام له ﷻ : بفعل ما أمر. هذا معنى قوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ .

وقوله ﴿حَنِيفًا﴾ ؛ الحنيف : هو المائل عن الباطل والضلال إلى الحق والهدى ، عن الشرك والكفر إلى الإيمان والتوحيد . ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ : اتجِه بقلبك وقالبك لإقامة دين الله الذي شرعه لك مخلصاً له ، وكن متجافياً مائلاً حذراً مبتعداً عن الباطل الذي أخطره وأشرّه على الإنسان الشرك بالله ﷻ . والحنيفية : ملة إبراهيم

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠] هي ملته ، فيكون العبد بهذه الصفة يعيش حياته بهذه الصفة ويبقى مجاهداً نفسه على تحقيق هذا المعنى إلى أن يتوفاه الله كما يأتي إيضاح هذا المعنى في الآية الثانية ، أن يقيم الإنسان وجهه لله بإقامة دينه مخلصا له ويثبت على ذلك إلى أن يموت على ذلك ويلقى الله ﷻ بالإسلام .

قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ ؛ هذا الذي طُلب من الناس إقامة الوجه للدين حنيفاً هو الفطرة، والفطرة : ما جُبل الناس عليه ، وما خُلق الناس مفطورون عليه ، ليس أبناء المسلمين فقط بل أبناء بني آدم كلهم فُطروا على ذلك ، فُطِروا على إقامة الوجه لله ، هكذا فطروا على الملة ، على الحنيفية ، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال : ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) ، وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا)) ، البهيمة عندما تنتُج وتولد تراها جمعاء ؛ ليست مقطوعة أذن ولا مكسورة قرن ولا مقطوعة يد تجدها جمعاء أي مكتملة الأطراف ، وإذا رأيت فيها جدعاً ؛ أذناً مقطوعة أو قرناً مكسورًا أو يداً مبتورة فهذا الجدع لم تولد به ((حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا)) ، فهذا مثل ضربه النبي ﷺ لبيان حال المواليد من بني آدم وأنهم يولدون على الفطرة . والفطرة كما في الآية : إقامة الدين لله ، ولهذا قال العلماء : المراد بالفطرة هنا الإسلام ، وليس هذا يعني أن المولود يولد عالماً بالإسلام وتفاصيله ، وإنما المراد أن المولود يولد على الفطرة بإقامة الوجه لله تبارك وتعالى والإقبال عليه وطلب الثواب منه وأداء العبادة له ، أما تفاصيل الدين لا تُعرف بالفطرة لابد فيها من الوحي ، ولهذا قال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] الشاهد قوله ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ، والمراد بقوله ﴿ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ : أي تفاصيله ، فتفاصيل الإيمان وتفاصيل الشرائع لا سبيل إلى العلم بها إلا من جهة الوحي ، وأما تهيؤ الإنسان وإقباله وقبوله وإقامة وجهه وإخلاصه لله هذه أمور فُطر الناس عليها ؛ وهي الإسلام ، وهي الدين القيم ، ولو خُلِّيَ بين الإنسان وفطرته ولم يُعبَث بها لما أقبل على غير الدين ولما قبِل غير الإسلام ؛ لأن كل العقائد مصادمة للفطر ، وغرْسها في الناس حرفٌ للفطرة ، بخلاف غرس الإسلام والتربية عليه هذا بناء للفطرة ، وقابلية القلب له قوية جداً لأنه يتواءم مع الفطرة التي فُطر عليها ، بينما كل عقيدة أخرى فغرسها في القلب حرفٌ للفطرة .

ولهذا أخذ كل العلماء من هذا فائدة عظيمة : أن التربية على الإسلام ليست عسيرة ، لأنك تربي فيه شيئاً يتواءم مع فطرته ليس شيئاً مصادماً لها ، بينما التربية على العقائد الباطلة إقحام أمور مناقضة للفطرة في القلب ومباينة لها، ولهذا يعيش أبناء الكفار صراعاً في قبول أمور فاسدة تردُّها فِطَرهم وتأباها ولكنها تُفرض عليه وتُغرس فيه

بالمخاوف وبالترغيب وبالتهديد وبذكر أمور تُغرس فيه إلى أن تذهب الفطرة ويحل محلها فساد العقائد ، ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) ، ولاحظ الإجتيال : نزع الإنسان وإخراجه من شيء ثابت فيه وُلد عليه فُطر عليه ، في الحديث قال : ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)) ؛ فهو يولد على الفطرة ، على الإسلام ، على الإقبال على الله ، على إخلاص الدين لله ﷻ ، يمضي على هذه الحياة ؛ وإلا هو إذا نشأ ابناً لأحد الكفار وبين أبوين كافرين وفي مجتمع كافر ، الأبوان والمجتمع يحدُث منهم اجتيال لهذه الفطرة وقتلٌ لها ، لأنه ينشأ على أمور لا تبني فطرته بل تهدمها ، لا تقيم فطرته بل تحرفها ، وكما قدمت ينشأ في صراع إلى أن ينشأ على ما عوّده عليه أبواه وما اعتاد عليه مجتمعه من الانحراف ، وإلا في البداية يرى أموراً غير مرغوبة .

أحد المهتدين يحدّث عن نفسه وكان من عبدَة الأصنام ، نشأ في مجتمع فيه عبادة الأصنام ، يقول : " فأخذني والدي إلى المعبد فلما دخلت وجدتُ أحد الكلاب يبول على الصنم فانقبضت نفسي منذ ذلك اليوم عن هذا الدين ووجدته دينٌ مقيت ، دين مبغوض ، آتي إلى هذا الحجر لأطلب منه حاجتي وعليه كلب يبول !! يقول وبقيت على هذه العقيدة وأنا كارهٌ ومبغض لها ؛ لكن هذا هو ديني وهذا دين آبائي وهذا دين مجتمعي " ، ثم يسّر الله له أن جاء عاملاً في هذه البلاد ورأى التوحيد وأعلن توبته وأعلن كراهيته لدينه منذ صغره ولكنه لم يجد مجالاً للتخلي عنه والإقبال على دينٍ صحيح يُعرَّف به . ولهذا كثير منهم تجده كاره لدينه مبغض له لكنه معتنق له مع مجتمعه ، وما أن يلوح له أمارات التوحيد وضياء الإسلام إلا ويُقبل عليه بانشراح . وهذا يدلنا على حاجة البشرية الماسة إلى إشاعة نور التوحيد والدعوة إليه وبيان محاسن الدين حتى يُعاد الناس إلى فطرهم الصحيحة التي حُرِفت عما خُلقت له وما أوجدت عليه من إقامة الوجه لله ﷻ دون سواه .

وذكّرتني قصة هذا المهتدي بقصة مشركٍ أوردها ابن جرير الطبري رحمه الله في كتابه التفسير في أوله، ذكر أن أحد المشركين قصد صنماً من الأصنام وقطع مسافات طِوال إليه لعرض حاجاته وطلباته عليه فلما وصل إلى الصنم وجد فوق رأسه ثعلب يبول ، والبول يصب من فوق رأس الصنم إلى أخمص قدميه ، فنظر إلى هذه الحال وأنشد بيتاً من الشعر ورجع ، قال: أَرَبٌّ يَبُولُ الثّعْلبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثّعَالِبُ

فعلى كل حال ؛ الإسلام هو دين الفطرة ، والله ﷻ فطر بني آدم كلهم على الإسلام ؛ قبوله والإخلاص لله ونبذ الشرك والحنيفية السمحة ؛ وتفاصيل هذا الدين لا تُعرف إلا بالوحي ؛ وحي الله ﷻ .

قال : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ ؛ خَلْقِ الله : أي ما فطرهم ﷻ عليه وهو دين الإسلام ، دين الفطرة الذي لا يقبل تبارك وتعالى ديناً سواه ، فمن بدّل أو غيّر أو ابتغى لنفسه غير هذه الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها فهي مردودة عليه ، لا يقبل الله ﷻ من الناس ديناً إلا ما فطرهم عليه وهو إقامة الوجه للدين حنيفا.

قال : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ ؛ أي دين الفطرة الذي هو الإسلام ، الذي هو إقامة الوجه لله ، الذي هو الاستسلام لله ﷻ ؛ هو الدين القيِّم ، الدين المستقيم الموصل إلى رضوان الله ﷻ وجنات النعيم . وكل طريق سواه فلا يوصِل إلى رضا الله ولا يوصل إلى جنته ، فلا يُنال رضاه تبارك وتعالى ولا تُبلغ جنته إلا بإقامة الوجه للدين ؛ الذي هو دين الله تبارك وتعالى القيم .

ثم ختم الآية بقوله ﷻ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هذه الحقيقة مع جلائها ووضوحها وكونها مغروسة في الفطر مركوزة في النفوس لكن الواقع ﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فأكثر الناس مجتالةٌ فطرهم ، لم يبقوا على الفطرة التي فُطروا عليها بل انحرفوا إما إلى مجوسية أو إلى يهودية أو إلى نصرانية أو غير ذلك من الأديان التي لا حصر لها .

﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ الذين يعلمون أقل الناس ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] ،﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦] . والآيات في هذا المعنى كثيرة ، فأكثر الناس على غير الفطرة ، فطَرهم بُدِّلت وغُيِّرت ، والأقل هم الذين سلِمت لهم فطرهم وبقيت دون تغير ودون تبدل ، وهذا أيضا يفيد أن العبرة ليست بالكثرة ، ولهذا قال بعض السلف: «عليك بالحق وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ ولا تستوحش من قلة السالكين» ، لأن العبرة ليست بالكثرة، وليس المقياس بكثرة العدد ، المقياس هو وجود الحق ولو كان الإنسان وحده ، ولهذا جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : «الجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الحَقّ ، وَإِن كُنْتَ وَحْدَكَ» . لو كان الإنسان وحده وهو على الحق وعلى الدين الصحيح الذي فطر الله ﷻ الناس عليه ، يقيم وجهه لله وما سواه على الشرك ؛ فالحق معه وليس معهم ، ولهذا وصف الله ﷻ إبراهيم الخليل ﷺ بأنه أمّة ؛ أي إمامٌ في الخير وحده ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ثم أورد رحمه الله قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ منبّهاً بذلك رحمه الله إلى أن إقامة الوجه للدين حنيفاً الذي هو فطرة الله ﷻ هو دين الأنبياء ووصيتهم ، فوصية الأنبياء إقامة الوجه لدين الله حنيفا بالإخلاص للمعبود في الأعمال كلها ، والاستسلام له بفعل ما أمر وطاعة رسله عليهم صلوات الله وسلامه ؛ فهذا هو دين الأنبياء ووصيتهم وميراثهم ، قد قال ﷺ : ((وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)) ، والعلم الذي ورّثه الأنبياء هو هذا؛ إقامة الوجه للدين حنيفا؛ بالبعد عن الشرك والإخلاص لله ﷻ والاستسلام له ﷻ وطاعة رسله.

قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ وصى بها : أي هذا الأمر وهو الإسلام ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ وصاه بالإسلام والاستسلام لله ﷻ وإقامة الوجه له وإخلاص الدين له والبعد عن الشرك بأنواعه ؛ هذه وصية أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه .

قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ وصية الأب لابنه هي وصية المشفق الحريص الذي يختار خير أمرٍ وأعظم أمرٍ يعهده لابنه . فهذه وصية الأنبياء لأبنائهم ولأممهم ؛ وصيةٌ بتوحيد الله وإخلاص الدين له ﷻ والبعد عن الشرك .

قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أي ووصى بها يعقوب بنيه قائلين : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ هذه الوصية الآن ، أعادها مع أنه أشير إليها بالضمير في قوله ﴿ وَوَصَّى بِهَا ﴾ أعاد ألفاظها تبييناً واهتماماً بها ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ هذه وصية الأنبياء وهذه خلاصتها ، وهذه الخلاصة التي هي وصية الأنبياء هي في حقيقة الأمر زبدة رسالتهم وخلاصتها وصفوها .

﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ اصطفاه : أي اختاره ورضيه ، ولا يرضى ﷻ ديناً سواه، وقد مر معنا آيات بهذا المعنى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران:١٩] ، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، اصطفاه: أي اختاره دينا ولا يقبل ديناً سواه ؛ فعليكم بهذا الدين الذي اصطفاه لكم واختاره لكم ولا يقبل منكم ديناً سواه ، ولو أقام الإنسان وجهه حياته كلها على غير ما اصطفاه الله له ورضيه ديناً له لا يقبله الله منه ، لو واصل الليل بالنهار عاملاً كادًّا مجتهداً لا يقبل الله منه ، فكما أنه ﷻ لا يقبل من العمل إلا العمل الخالص؛ فهو لا يقبل من العمل إلا العمل الذي شرع وهو الدين الذي اصطفاه ﷻ لعباده وهو قائم على أمرين : إخلاص له، وعمل بما شرع لا بالضلالات والأهواء والبدع .

قال:﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ والدين: شرْعه تبارك وتعالى القائم على توحيده وإسلام الوجه له ﷻ.

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ : أي أقيموا وجوهكم لهذا الدين مستمرين عليه ماضين عليه محافظين عليه مجاهدين أنفسكم على الثبات عليه إلى الممات ، وهذا هو معنى قوله : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، وهذا مثل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢] ؛ والأمر بالموت على الإسلام في قوله : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ يعني الاستقامة على الإسلام والمحافظة عليه

وإقامة الوجه للدين حنيفا والمضي على ذلك إلى أن يموت الإنسان . والإنسان لا يدري متى يموت ؛ قد يموت بعد يوم وقد يموت بعد ساعة ، وقد يموت بعد سنة وقد يموت بعد مئة سنة ، أمر مغيّب لا يدري عنه الإنسان ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان:٣٤] ، ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[الرعد:٣٨] ، والموت لا يفرّق بين صغير وكبير ، قد يدخل الموت إلى بيت فيه رجل مسن جاوز السبعين أو الثمانين أو جاوز المئة ويدَعه ويأخذ طفلاً صغيرًا في البيت ، وكم من بيوت عندهم رجل مسن وبين ساعة وأخرى يتوقعون أن يفتقدوه ثم يفاجئون بافتقاد طفل صغير !! فالموت لا يفرق بين صغير وكبير ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

فقوله : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ بأن يحافظ الإنسان على إسلامه مستقيماً عليه مجتهداً في تتميمه وتكميله إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى على الإسلام .

قال: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أمرٌ بالموت على الإسلام ، وهذا الموت على الإسلام يرجع إلى الثبات عليه ، والله ﷻ قال: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

ثم أورد رحمه الله قول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا تتويج للمعنى السابق ؛ لما ذكر في الآية الأولى إقامة الوجه للدين حنيفا وبيّن في الآية الثانية أن هذا هو دين الأنبياء ووصيتهم ومنهم إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام توّج المعنى بقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ .

وهنا تقول : ما هي ملة إبراهيم التي أمِر نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام وأمته باتباعها ؟ ملته ما جاء في هذا السياق ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ ﴾ ، ملته هي وصيته التي أوصى بها بنيه ودعا إليها قومه : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، هذه هي ملة إبراهيم : الحنيفية السمحة التي أمر نبينا عليه الصلاة والسلام باتباعها قال: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة ؛ إقامة الوجه للدين مخلصاً لله مطيعاً له ممتثلاً أمره عابداً له ﷻ بما شرع . ثبت عن نبينا ﷺ في أذكار الصباح أنه كان يقول – ولاحظ اجتماع هذه المعاني في هذا الذكر – : ((أَصْبَحْنَا عَلَى

فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) كان يقول ذلك إذا أصبح ، ويقول ذلك إذا أمسى : ((أَمْسَيْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) .

ومما ينبغي أن يُعلم هنا ويتأكد العلم به والعناية به : أن هذه الأذكار ليست مجرد كلمات تقال ، يقولها الإنسان إذا أصبح وإذا أمسى مجردةً عن العلم بمعانيها وتحقيق مضامينها ؛ ليس هذا شأنها ، وإنما هذه الأذكار فيها تجديد للتوحيد وتجديد للفطرة وتجديد للملة الحنيفية ملة إبراهيم ، تجديدٌ للزوم العهد بإتباع الأنبياء ولزوم نهجهم ، تجديدٌ لأخذ الميثاق على النفس بالبُعد عن الشرك الذي هو أظلم الظلم وأكبره ، تجديدٌ للإيمان بلزوم الحنيفية السمحة ، أرأيتم شخصاً يصبّح ويمسي بهذه الكلمات متأملاً في مضامينها مجتهداً في تحقيق ما دلت عليه ؛ فإنه يصبح على خير يوم ويمسي على خير حال ، على خير يبيت ويمسي ويصبح إذا كان على هذا الأمر ماضٍ مجدداً إيمانه مجدداً توحيده مجدداً حنيفيته وبراءته من الشرك ، مجتهداً في تحقيق هذه المعاني .

وكل المضامين التي مرت معنا اجتمعت في هذا الذكر العظيم المبارك الذي يقال كل صباح ومساء ويشرع للمسلم أن يواظب عليه ؛ ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) . لاحظ هذه الكلمات الثلاث : «حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ» هي التي مرت معنا الآن في الآيات : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ، وفي الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، وفي الآية الثالثة : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ولاحظ الارتباط بين جُمَل هذا الذكر الأربع : «فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ،كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ» ؛ هذه الأربعة شيء واحد أم مختلفة ؟ الفطرة : هي التوحيد ، هي لا إله إلا الله ، هي ملة محمد ﷺ ، هي دين أبينا إبراهيم عليه السلام ، فالفطرة هي لا إله إلا الله هي توحيد الله إخلاص الدين لله ، وهو الدين الذي بُعث به محمد ﷺ ، وهو ملة إبراهيم الذي أمر نبينا عليه الصلاة والسلام بإتباعه وأمِرت أمته بإتباعه ، هذا هو دين الله وهو دين الأنبياء كلهم من أولهم إلى آخرهم ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى:١٣] ، قوله في حق الأنبياء وما شرعه الله عز وجل لهم هو هذا المعنى ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ ، وهنا قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ ؛ فهذا هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث

الصحيح : ((الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)) ؛ الدين الذي عليه الأنبياء واحد لكن الشرائع ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨]

حقيقة الدين : إخلاصٌ لله واستسلام لأمره ، فمن لم يستسلم لأمر الله ﷻ بما أمره به لم يقِم وجهه للدين ، وبهذا يتبين أيضا معنى سبق إيضاحه وهو : بعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام وما شرع الله لنبيه ﷺ لا يقبل الله من عباده ديناً سواه ، ومن عبَد الله ولو كان بشرعٍ غير مبدل –دعك من المبدَّل– بعد بعثة محمدﷺ لا يقبل الله منه، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ لأنه ﷻ لا يقبل في كل زمان إلا ما شرع وما أمر وأوحى إلى رسله به من الشرائع ، سوى ذلك لا يقبله تبارك وتعالى .

إذًا هذه الترجمة وما فيها من الآيات وما فيها من الأحاديث التي سيأتي ذكرها عند المصنف تبين حقيقة الإسلام التي تنال به فضائل الدين العظام ؛ أنه إقامة الدين لله مخلصاً حنيفاً ثابتاً على ذلك محافظاً عليه إلى أن يتوفاه الله ﷻ على ذلك ؛ هذا هو الإسلام الذي تُنال به فضائله.

قال رحمه الله :

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ ، وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم وَخَلِيلُ رَبِّي ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨] **رواه الترمذي .**

****

قال : ((**وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ**)) ؛ أي أحبة ، لأن الولاية تعني الحب ، والمراد هنا بأن له ولاة : أي له أحبة ؛ الأنبياء لهم مكانه خاصة ولهم مزية خاصة ولا يعني ذلك انتفاء المحبة عمن سواهم . والأنبياء كلهم قد أخِذ عليهم الميثاق بالإيمان بكل رسول يبعثه الله والتزموا بذلك ، ولهذا الأنبياء كلهم على طريقة واحدة ، وعلى منوال واحد ، وعلى سبيل واحد ، وعلى نهج واحد ،كلهم ماضون على مسلك واحد، كلهم دعاة إلى الله وتوحيده ، يجمعهم دين الله والحب فيه والدعوة إليه وبلاغه للناس ودلالة الناس على الخير والحق والهدى . وهنا قال: ((**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ**)) ؛ يعني لهم شأن .

قال: ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم وَخَلِيلُ رَبِّي**)) والله ﷻ لم يتخذ من عباده خليلاً إلا اثنين : إبراهيم الخليل عليه السلام، ونبينا ﷺ . وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)) . فيقول عليه الصلاة والسلام : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) ، ونبينا ﷺ من ولد إبراهيم ؛ لأن نسبه يصل إلى إسماعيل بن إبراهيم ، فإبراهيم أبوه ولهذا قال : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) .

((**وَخَلِيلُ رَبِّي**)) ولاحظ تنصيص النبي عليه الصلاة والسلام على الخلة التي ارتبط بها المعنى السابق وهو قوله : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) ؛ وهذا يبين أن النبي ﷺ في حبه وفي ولاءه ينطلق من حب الله ﷻ ، فالله اتخذه خليلا فكان من شأنه عليه الصلاة والسلام أن قال : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) ، خصه الله ﷻ بالخلة وهي أعلى درجات المحبة وأرفع منازلها .

((**ثم قرأ قول الله** ﷻ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾)) ؛ وفي هذا تنبيه على أمرٍ سبق إيضاحه عند المصنف في ترجمة مستقلة وهو أن هذا الباب لا يكفي فيه مجرد الدعوى ومجرد الانتماء ، وكم من أناس على ملل باطلة وأديان زائفة ويدّعون أنهم أوْلى بإبراهيم ، وقد مر معنا قول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:٦٥] ، ومر معنا سبب النزول؛ وأن اليهود قالوا: إن إبراهيم يهودياً ، والنصارى قالوا: إن إبراهيم نصرانياً ، ورد الله ﷻ عليهم وكذّب دعواهم في هذا السياق المبارك . وعقب هذا السياق الذي فيه تكذيب دعوى هؤلاء قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ أولى الناس به ليسو من يدّعون أنهم أولياؤه وأحباؤه وهم على غير ملته وعلى غير دينه وعلى غير الحنيفية التي كان عليها ليسو أولياءه ، وقد قال نبينا ﷺ كما في حديث مر معنا قريبا : ((إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما أوليائي المتقون)) . فهنا فيه تنبيه على هذا المعنى : ((**ثم قرأ ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾**)) ، كثيرون من يدّعون أنهم محبون له وأنهم أوْلى به ، اليهود يدّعون ذلك ، والنصارى تدّعي ذلك ، والمشركون الذين بُعث فيهم ﷺ يدّعون ذلك ، كلٌّ يدّعي ولكن الدعاوى ما لم يُقَم عليها بينات فأهلها أدعياء .

قال: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ وفي ختم الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تنبيهٌ على أن الأدعياء لا حظ لهم من ولاية الله لعبده ، وإنما ولاية الله لعبده تُنال بالإتباع ؛ إتباع ملة إبراهيم الحنيفية السمحة .

قال رحمه الله :

وعن أبي هريرة ﷺ **قال : قال رسول الله** ﷺ : ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)) .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ليبين أيضاً المعاني السابقة وليؤكد عليها ، وليوضح أن ولاية الله لعبده وتأييده لعبده وحفظه له ونيل العبد لثوابه وعظيم موعوده لا ينال إلا بتحقيق ما سبق ؛ ولهذا قال هنا في هذا الحديث : ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)) ؛ لا ينظر إلى الجسم من حيث الطول أو القصر أو البياض أو السواد أو وجود العيب أو السلامة من العيب ، وجود البصر أو عدم وجود البصر ، وجود السمع أو عدم وجوده أو ضعفه ؛ كل الأمور التي تتعلق بالأجسام لا ينظر الله إليها ، وقل ما شئت فيما يختص بالجسم كله ليس محل النظر ؛ لا طول ولا قصر ولا صحة ولا سلامة أعضاء ولا غير ذلك ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ**)) .

((**وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)) ؛ المال : ما يملكه الإنسان من أموال ، من نقود ، من تجارات ، من مزارع ، من بيوت ، من مركوبات ؛ كلها مال له ؛ فهذه كلها ليست محل للنظر . لا ينظر الله لا إلى الأجسام ولا إلى الأموال ، جسم الإنسان بجميع أجزائه ، وأمواله بجميع أشكالها وأنواعها لا ينظر الله إليها وليست هي محل الاعتبار في التقريب من الله ﷻ ونيل الثواب .

ومعنى قوله ((**لَا يَنْظُرُ**)) ؛ المراد بالنظر هنا نظر الرحمة والإثابة والإنعام والقبول والرضا ، وإلا فالله ﷻ يبصر جميع المبصرات ويرى جميع المخلوقات ، والنظر المنفي هنا : هو نظر والإنعام والرحمة والرضا والقبول والإثابة ، فلا ينظر إليهم ﷻ هذا النظر ؛ ولهذا يكثر في الأحاديث مثل هذا المعنى: ((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))؛ فالمنفي هنا : نظر الإكرام وكلام الإكرام والإحسان ، وإلا فالكفار الذين نُفي الكلام عنهم يقول الله لهم يوم القيامة ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ . هل قوله ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا﴾[المؤمنون:١٠٨] يتنافى مع قوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة:١٧٤] ؟ لأن الكلام المنفي كلام الإكرام والرحمة والإحسان والرضا ، والكلام المثبت أمرٌ آخر . فقوله هنا ((**إن الله لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)) ؛ المراد بالنظر المنفي هنا: نظر الإكرام والإحسان والرضا والقبول .

((**لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)) ؛ النظر إلى هذين : إلى القلوب والأعمال ، والقلوب والأعمال –وهذا موضع الشاهد من إيراد المصنف لهذا الحديث– بماذا تصلح ؟ بماذا يصلح القلب وبماذا يصلح العمل ؟ قال: ((**لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)) ، فما هو القلب والعمل الذي نال رضا الله ﷻ ؟ أكُلُّ قلبٍ ينال رضا الله ؟ أكُلُّ عملٍ يُنال به رضا الله ؟ حاشا وكلا ، إذاً ما هو الأمر الذي يُصلَح به القلب وتُصلح به الأعمال فينال الإنسان رضا الله ﷻ وثوابه ؟

الجواب في الآيات المتقدمة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ، ومر معنا في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال للرسول عليه الصلاة والسلام ما الإسلام ؟ قال : ((أن تسْلم قلبك لله ، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن

تصلي الصلاة المكتوبة ، وأن تؤدي الزكاة المفروضة)) ؛ فالقلب والعمل لا يصلحان إلا بإقامة الوجه للدين حنيفا ؛ بإصلاح القلب بالتوحيد والبراءة من الشرك ، وإصلاح العمل بالمحافظة على أوامر الله ﷻ.

وتقديم القلب على العمل لأنه أساس قيام الأعمال ، وقد قال عليه الصلاة والسلام منبهًا على عظم شأن هذا الأساس : ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ،وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) ، والأعمال بمجردها لا تُقبل إلا إذا كانت مؤسسة وقائمة على التوحيد والإخلاص لله ﷻ . وقوله في الحديث ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ؛ النية تارة تُطلق ويراد بها ما يميز به عمل عن عمل وفريضة عن فريضة وواجب عن واجب ، وتارةً تطلق ويراد بها الإخلاص لله ﷻ في العمل . فالعمل لا يُقبل إلا إذا أقيم على الإخلاص لله ﷻ وصلح القلب بذلك ، وهو معنى قوله : ((أن تسْلم قلبك لله)) أي مخلِصاً مذعِناً مستسلماً ، ثم الجوارح تكون تبعٌ للقلب ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)).

والعاقل إذا وقف على هذا الحديث وأمثاله من الدلائل في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام يجاهد نفسه على إصلاح قلبه وتزكية نفسه ، يجاهد نفسه على الإخلاص لربه تبارك وتعالى والاستسلام لأمره ، وإتباع نهج رسله عليهم صلوات الله وسلامه ، ويجاهد نفسه على المحافظة على ذلك والثبات عليه إلى أن يلقى الله ﷻ حنيفاً مسلماً ؛ فيرضى عنه ربه ويفوز بثوابه ونعيمه تبارك وتعالى الذي أعده لعباده المسلمين .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .